

الدرس السادس: مناهج الدراسة التاريخية.

مناهج الدراسة التاريخية هي مجموعة من الأساليب والأدوات المنهجية التي يستخدمها الباحثون لجمع وتحليل وتفسير الأدلة والوثائق المتعلقة بالماضي لفهم الحاضر واستشراف المستقبل، وتعتمد على المنهج التاريخي، الذي يشمل جمع المصادر (الأولية والثانوية)، نقدها وتحليلها (التحليل الخارجي والداخلي)، ثم عرضها وتفسيرها للوصول إلى استنتاجات موضوعية، مع التركيز على علم التاريخ نفسه بأدوات مثل دراسة الخطوط القديمة وعلم النقوش والتسلسل الزمني، بالإضافة إلى مناهج أخرى قد تتكامل معه كالمقارن والوصفي والتحليلي.

ومن هذا المنطلق فالدراسة التاريخية بحاجة إلى مناهج البحث التي تزود الدارس بالخبرات والتقنيات والأدوات التي تمكنه من القراءة التحليلية والتعليقية الناقدة للمؤلفات والمصادر تلخيصا وتحليلا ونقدا لتعميم نتائجها والثقة في هذه النتائج التي يتوصل إليها الدارس لمختلف القضايا التاريخية.

يعتبر المؤرخان شارل فيكتور لانغلوا وشارل سينوبوس أول حاولا وضع كتاب حول منهج البحث التاريخي في أواخر القرن التاسع عشر أطلقا عليه عنوان: "مدخل للدراسات التاريخية" (Introduction aux études historiques)، أما في البلاد العربية فقد برز الاهتمام بهذا الجانب في القرن العشرين مع أسد رستم وكتابه "مصطلح التاريخ"، رغم أن العودة إلى التاريخ الإسلامي تبرز لنا أن المؤرخين في هذه الحقبة قد أدركوا كثيرا من الأساسيات العلمية لمنهج البحث التاريخي بمضمونها الحديث من خلال أساليب الجرح والتعديل، الإسناد والعنونة وتحقيق الإسناد، تنويع الروايات والاشارة إليها، النقد وتحكيم العقل، المقارنة والتحليل ومنهم:

- عبد الرحمان ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) في كتابه العبر والذي نظر للتاريخ كعلم مستقل بنفسه هو العمران البشري، والاجتماع الإنساني بموضوعاته وجوانب حياته المختلفة: "التاريخ فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، الأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يروقه في أحوال

الدين والدنيا"، ويقول أيضا: "هو في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول،...وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل الكائنات ومبادئه دقيقة، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميقة"

- منهج محمد بن عبد الرحمان السخاوي (ت 902هـ/1496م): في كتابه "الإعلان بالتوبخ لمن ذم علم التاريخ" أين جعل موضوع التاريخ هو الإنسان والزمان بجميع تجلياته ومظاهره فرأى أن التاريخ: "هو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال في مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة وعقل وبدن، ورحلة وحج، وحفظ وضبط وتوثيق، وتجريح وما أشبه هذا، مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم، وحالهم في استقبالهم، ويلحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع، وربما يتوسع...والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان، من حيث التعيين والتوقيت"

- منهج التدوين التاريخي عند الطبري (ت: 310هـ/922م): الذي جعل موضوعه هو الماضي بكل تجلياته فهو: "تاريخ الملوك الماضين وجملا من أخبارهم وبعض سيرهم، ومبلغ ولاياتهم، والكائن من الأحداث في أعصارهم"

ومن هذه المنطلقات التي حددها ابن خلدون،، السخاوي، الطبري، ابن الأثير، القرمانى، وغيرهم فعلم التاريخ هو علم اجتماعي إنساني باعتباره محاولة منظمة لمعرفة الحوادث الماضية، وتحقيقها عن طريق ربط كل حادثة بالأخرى، والكشف عن تأثيراتها، هذا ما يجعلنا لا نفصل بين ما كتبه مؤرخي الحضارة الإسلامية في البحث التاريخي وعلم التاريخ عن منهجية البحث التاريخي (المنهج الاستردادي) المعاصرة التي برزت في مختلف الأقطار الأوروبية ومدارسها العديدة.

ومع عصر النهضة في أوروبا برز توجه ونظرة سينوبوس ولانغلوا والمدرسة الوضعية وتركيزهما على الوثيقة كمصدر لا غنى عنه في منهج الدراسة التاريخية "لم يعد النص شرطا من شروط عمل المؤرخ فحسب، بل أصبح مادة درسه ذاتها"، وهو نفس توجه مدرسة الحوليات مع شروط منهجية أخرى تبرز أهمية الوثيقة لكن لا تجعل منها تاريخا لوحدها بل إن الكتابة

التاريخية هي: "فحص وغرلة ومساءلة، وبناء تلك المكتوبات الناطقة أو الشواهد الصامتة، التي جاءت من قبل رجال الماضي الذين وضعوها لغايات معينة".

ومن هذا المنطلق فإن الأهم في الكتابة التاريخية هو المودع في الوثيقة، هل هو التاريخ؟ أو الإلماع (الإشارة) إلى التاريخ، وفق طرح عبد الله العروي في كتابه "مفهوم التاريخ" فالوثيقة باعتبارها مصدرا تاريخيا لا غنى عنه ولكن هل هي معرفة (الوثيقة المعرفة) أم هي تاريخ (الوثيقة التاريخ)؟، هذا ما يقودنا إلى صنعة المؤرخ ومنهجه حين تتحول الوثيقة من ملكية التاريخ والماضي، إلى ملكية المؤرخ والحاضر، ومن مرحلة الإبلاغ إلى مرحلة الإفرغ، ومن حالة امتلاك الوثيقة إلى حالة إنطاقها.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نبين مميزات المنهج التاريخي التي تعتبر متداخلة مع العديد من المناهج الأخر في ظل انفتاح المناهج والعلوم على بعضها وتداخلها مع حركة الوعي الإنساني:

- البحث التاريخي يعتمد على المنهج العلمي: فالباحث يبدأ بالشعور بالمشكلة وتحديد لها ووضع الفروض المناسبة، وجمع المعلومات والبيانات والأدلة لاختبار تلك الفروض والوصول إلى النتائج والتعميمات اعتمادا على السجلات والآثار والوثائق.
- التجريب/النقد: إذا كان التجريب هو جوهر الطريقة العلمية فإن الفحص ونقد المصادر هو جوهر التاريخ وهو التجريب في الطريقة التاريخية.
- إن المعرفة التاريخية معرفة جزئية أكثر منها كلية، لكن الباحث فيها لا يتخلّى عن الاحتياطات الموضوعية باعتبار الحادثة التاريخية مختلفة عن الحادثة الطبيعية باعتبار الحادثة التاريخية في أسبابها أكثر تعددا من الحادثة الطبيعية، ما يجعل فروضها أكثر وغموضها أشد وتعميماتها أقل دقة.

خلاصة: إجمالاً فالمنهج التاريخي هو جملة الأساليب والتقنيات والأدوات المنهجية التي تساعد في جمع، فهم ونقد وتحليل الأدلة التاريخية، وهذا ما يشكل لنا منهج البحث التاريخي الذي يقوم أساساً على جملة من المناهج العلمية والأدبية والفنية التي تشكل مجتمعة منهجاً تاريخياً يسمح بالدراسة الممنهجة التي تعطي أخيراً بحوثاً تاريخية حقيقية، ومن هذه المناهج نبرز:

- المنهج التاريخي الاستردادي: وجوهر الدراسة، يركز على إحياء الأحداث الماضية وتحليلها للوصول إلى نتائج علمية، ويدعم فهم الواقع الحالي وتوقع المستقبل
- المنهج الوصفي: يصف الظواهر التاريخية كما هي في سياقها الزمني
- المنهج المقارن: يقارن بين أحداث أو ظواهر تاريخية مختلفة لفهم الأسباب والنتائج .
- المنهج الفلسفي: يعطي بعداً فلسفياً للتاريخ وفهم تطور الأفكار .
- المنهج الاجتماعي والأنثروبولوجي: يدرس تأثير المجتمعات والثقافات على الأحداث التاريخية .

ومن هذا المنطلق تكون مراحل تطبيق المنهج التاريخي قائمة على خطوات علمية ممنهجة تتطرق بـ:

- **تحديد المشكلة:** اختيار الظاهرة أو الحدث التاريخي المراد دراسته.
- **جمع البيانات:** البحث عن المصادر الأولية (وثائق، رسائل) والثانوية (كتب، مقالات) وتنقيتها.
- **تحليل البيانات (النقد):** النقد الخارجي (أصالة المصدر): التحقق من صحة المصدر نفسه (هل هو أصلي أم مزيف؟) ثم النقد الداخلي (صدق المحتوى): التحقق من صدق المعلومات الواردة في المصدر، وتحديد دوافع الكاتب.
- **تفسير البيانات:** وضع المعلومات في سياقها التاريخي لفهم أسبابها ونتائجها، وتحديد العلاقات بينها.

- **الصياغة وبناء البحث:** بناء صورة شاملة وموضوعية للظاهرة المدروسة استناداً للأدلة بأسلوب علمي مباشر وواضح بعيداً عن اللغة الأدبية.

مراجع حول الدرس:

1- قاسم يزبك: التاريخ ومنهج البحث التاريخي، ط. 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1990.

2- وجيه كوثراني: تاريخ التأريخ اتجاهات-مدارس-مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط. 2، بيروت، لبنان، 2013.

3- حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ط. 2، دار المعارف، القاهرة، 1964.

4- عصام الدين محمد علي: بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة ق1-ق4هـ، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1986.

5- فهيمة سعودي: "الكتابة التاريخية الغربية المدرسة الوضعية والحولية نموذجاً"، مجلة الفكر، المجلد السادس، ع. 1، الجزائر، جوان 2022.

6- إمام عبد الفتاح: العقل في التاريخ: محاضرات في فلسفة التاريخ، دار التنوير، د ط، بيروت، 2007.

7- عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز العربي، ط. 4، الدار البيضاء، المغرب 2005.

8- شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ"، تح. فراز روزنتال، تر. صالح أحمد العلي، ط. 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.

9- أسد رستم: مصطلح التاريخ، دار التراث للبحوث والدراسات، ط. 1، القاهرة، 2015.

10- عبد الرحمان ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان (الشأن) الأكبر، دار الفكر، ط. 1، بيروت، 1981.